الإنسان وأزمة التعبير 2

أزمة التعبير و المذاهب الفلسفية المعاصرة :

انشغلت الفلسفات المعاصرة ومنذ بداية القرن العشرين بما يُعرف بأزمة الإنسان المعاصر، ورغم اختلاف تلك الفلسفات في تحديد مجال وطبيعة هذا التأزم إلا أنها كلها تتفق على مدى صعوبة الوضع الإنساني، كما قدمت له بعض الحلول لتخطي تلك الأزمة .كما أن تلك التصورات ربطت في غالبها بين تأزم الحياة الإنسانية من جهة وما عرفته البشرية من تطور علمي وتقني من جهة ثانية، فما خصوصية هذه الأزمة؟ وما السبل التي يتوجب على الإنسان اتخاذها للتعبير عن وجوده ككائن متجاوز وفعال؟

الفلسفة الوجودية ونظرتها إلى الأزمة

عندما نتحدث عن أزمة الإنسان يتبدى لنا مفهوم ظهر هو الآخر لتلخي- تلك المشكلة وإعطاءها أبعادا أخرى، إنه مفهوم الاغتراب .وهو ما جعل الأمر يتجاوز الفلسفة إلى ميادين أخرى في العلوم الاجتماعية والإنسانية والآداب والفنون وغيرها . لا يمكننا إنكار الجهود المبذولة في نقد الاجتياح العلمي لحياة الإنسان وما ترتب عنه من مشاكل أفرزتها التطبيقات التقنية، ولا ذلك الحرص الذي أبدته الفلسفة الوجودية على جعل الإنسان هو" الحاضر الأبدي "في كل تفلسف ,إلا أن كل هذه الجهود لم تبرهن على مستوى الواقع إلا على نتيجة واحدة أن" الإنسان هو الحاضر الغائب " وقبل أن يشرف القرن العشرين على نهايته تم إعلان" موت الإنسان ,"هذا القول الذي فسره بعض المفكرين" أن موت الإنسان ليس مجرد تعبير عن أيديولوجية تحرص على دقة الخطاب العلمي وإنما هو تعبير أيديولوجي عن نزوع الإنسان المعاصر نحو التخلي عن النشاط الفعلي في مجتمع تكنوقراطي أصبح فيه كل شيء جاهز ومخطط له مسبقا .وكان من الطبيعي أن يتبع" موت الإنسان". "موت التاريخ .."وتوقف الجدل وإعلان موت الفلسفة .."وهكذا بدأ القرن الواحد والعشرون خطابا للنهايات.

هذا التوصيف يضعنا أمام حقيقة لا يمكن إغفالها، أن الاغتراب الإنساني قد مضى أبعد وأسرع مما كنا نتصور ولربما
وصل إلى تمامه وهو أمر يطرح على مستوى النقد مفاهيم كثيرة أهمها النزعة الانسانية وربما كل الفلسفات التي وصفت نفسها بفلسفات الفعل .وحيث أن الفلاسفة رغم ما عرف عنهم من اختلافات اتفقوا على الحد الأدنى في تعريفهم لمعنى الاغتراب باعتباره نوعا من" الانفصال "وعندما يصل الاغتراب إلى تمامه لا يوجد ثمة حاجة إلى سرد أنواعه فقد تحقق على مستوى الواقع بكل صنوفه ربما في حياة كل فرد يسير على قدمين وأصبح سلوك الإنسان الفرد في يومه الواحد يفصح عن هذه الحقيقة.

الإنسان المعاصر وأزمة التعبير

لو تمعّنا جيدا في هذا الوضع المأساوي الذي يعيشه الإنسان الي وم لتبين لنا أن أهم -وأبرز خسائره هو فقدانه لحريته، والتي جاءت نتيجة لغياب عامل التفكير العقلاني لديه .بمعنى أن جوهر الإنسان هو العقل الذي بدونه لا يمكنه أن يتجاوز واقعه، فالعقل ليس إضافة إلى الإنسان، بل العقل هو الإنسان؛ من حيث كون
العقل هو حرية الإنسان التي تبدأ بحرية التفكير، تلك الحرية التي تجد مشروعيتها الواقعية في حرية التعبير .أي أن الإنسان وجودياً هو حريته، وحريته هي عقله، وغياب العقل يعني بالضرورة غياب الحرية، وهو الغياب الذي يعني بالضرورة- - - أيضا غياب الإنسان .يتحول الإنسان في غياب الحرية إلى(شيء)، أي يفقد جوهر إنسانيته .وهذا أمر واضح وبديهي،- أمر وعته الإنسانية منذ فجر تاريخها؛ إذ كانت العبودية، كما تجلت في عبودية الر(وهي انعدام الح رية بالكامل)، تعني تحوّل الكائن الإنساني إلى(شيء)يُباع ويُشترى كما تباع وتشترى الأشياء.
لهذا السبب، كانت القوانين في معظم المجتمعات الإنسانية تربط بين الحرية والعقل على نحو واضح، تربط مساحة

الحرية المتاحة للإنسان بتوقعات النضج العقلي .مثلًا، يُمنح الفرد حرية التصرف بنفسه مستقلا عندما يبلغ سناً محددة يتوقع فيها أنه قد امتلك الحد الأدنى من التعقل (طبعا هو تعقل مشروط باختلاف المكونات الثقافية لكل مجتمع.)

ويمكننا أن نستحضر الإجابة الكانطية لسؤال :ما التنوير؟ تلك الإجابة التي توثق الصلة بين ذلك الثلاثي المتّحد؛ الإنسان والعقل والحرية .فهو يرى أن التنوير يتحدد في الجرأة على استخدام العقل، أو هو بلوغ الرشد الإنساني الذي يمنح الإنسان حرية استخدام عقله بكل شجاعة .ومن هنا رأينا كيف كان عصر العقل(القرن الثامن عشر الميلادي)هو عصر التنوير، وهو كما يعلم كلّ دارسي التاريخ عصر الإنسان . - - .

من هنا، كان البحث عن العقل وفي العقل، هو بحثاً عن الإنسان وفي الإنسان .تفعيل العقل هو رفع لدرجة الحضور الإنساني في الإنسان، من حيث هو تفعيل لحريته التي تمنحه التمايز والاستقلال عن عالم الأشياء، الأشياء الفاقدة للحرية، الأشياء التي تباع وتشترى، أو التي تستخدم كموضوع فعل- على نحو من الأنحاء- .وعليه فمستوى حضور العقل هو ما يعادل حضور الإنسان نفسه، الذي لا يمكنه أن يكون حاضرا إلا في وجود حريته المرتبطة باستقلاله العقلي .وعلى ضوء هذا، من الواضح جدا أن البحث عن العقل، وفي العقل وفق هذه الرؤية هو- - محاولة لانتشال الإنسان(من حيث هو كائن متفرد)من عالم القطيع الذي كثيرا ما يتجلى في جماهير التقليد المبرمجة على امتثال ما تقوله الرموز الجماهيرية المقدسة .وقديماً، وصف الفيلسوف اليوناني :هرقليطس، الجماهير بأشد الأوصاف

احتقارا؛ لأنهم(كما في وصفه)ينساقون وراء غيرهم من المشاهير كالأنعام .تلك الحرية الموجهة بالعقل هي التي تكفل للإنسان كل سبل التعبير التي من شأنها تحريره من التبعية للآخر دون خوف أو تردد.

في ختام هذه المحاضرة نستطيع القول أنه ورغم ما جرّته الحياة الجديدة من أزمات للإنسان المعاصر إلا- أنها أيضا وفي المقابل فتحت أمامه آفاقا واسعة من الاختيارات؛ فإما أن يعيش تابعا منساقا للأصنام التي عادة ما يصنعها هو أو أنه يشق لنفسه سبل الحرية التي تمكّنه من تحطيم تلك الأصنام والتعبير عن وجوده بكيفيات ولغات لا متناهية.